محاولات في درس جبران

يسوع الانجيل ويسوع جبران

بقلم امين خالد

٣ (تتمة)

لا عجب في ان يكون جبران بعيداً عن الاقرار بالخوارق والمعجزات التي اجترحها السيد المسيح وحفظت ذكراها الاناجيل الاربعة ، وهو مَن عرفنا ميله الى النزعة المادّية والى تحليل مظاهر الحياة باجمعها عن طريق العاطفة والخيال . وانه ليكفينا ان نقوم بمقابلة قصيرة بين نصوص الانجيل الصريحة بشأن العجائب ، وتعليل جبران لها ، مختارين اربعة من اهمها وهي : شفاء العمى ، والشلل ، واخراج الشياطين ، واعادة الحياة :

« وفيما يسوع مجتازٌ من هناك تبعه اعميان يصيحان ويقولان : ارحمنا ، يا ابن داود . فلما دخل البيت دنا اليه الاعميان . فقال لهما يسوع : هل تؤمنان اني اقدر ان افعل ذلك . فقالا له : نعم ، يا ربّ . حينئذٍ لمس اعينهما قائلاً : « كايمانكما فليكن لكما . » فانفتحت اعينهما . »(١)

هذا وذكر شفاء العميان كثير في الاناجيل الاربعة بصراحة تامّة . وكذلك شفاء المقعدين والمخلّعين :

« وفي احد الايام كان يعلّم ، وكان الفريسيّون ومعلّمو الناموس جالسين ، وقد اتوا من جميع قرى الجليل واليهودية ومن اورشليم . . . واذا برجال يحملون مخلّعاً على سرير وكانوا يلتمسون ان يدخلوا به ويضعوه امامه . واذ لم يجدوا من اين يدخلون به لسبب الجمع صعدوا به الى السطح ودلّوه من بين اللّبن مع سريره الى الوسط الى قدّام يسوع . فلما رأى ايمانهم قال : « يا رجل ، مغفورة لك خطاياك . » فجعل الكتبة والفريسيون يفكّرون ويقولون : من هذا الذي يتكلّم بالتجديف ؟ من يقدر ان يغفر الخطايا الا الله وحده ؟ فعلم يسوع افكارهم وقال لهم : « بماذا تفكّرون في قلوبكم ؟ ما الايسر ان يقال مغفورة لك خطاياك ام ان يقال : قُم وامشِ ؟ ولكن ، لكي تعلموا ان ابن البشر له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا — ثم قال للمخلّع — : لك اقول : قُم احمل سريرك واذهب الى بيتك ! » وفي الحال قام قدّامهم ، وحمل السرير الذي كان مضطجعاً عليه ومضى الى بيته ممجّداً الله . » (٢)

١) متى ٩ : ٢٦—٣٠ ٢) لوقا ٥ : ١٧—٢٦

وهذا مثل على اخراج الشياطين :

« وكان في المجمع رجلٌ به روح شيطان نجس ، فصاح بصوت عظيم قائلاً : « دعْ ما لنا ولك يا يسوع الناصري ! أأتيت لتهلكنا ؟ قد عرفتك من انت انك قُدُّوسُ الله . » فانتهره يسوع قائلاً : « اخرس ، واخرجْ منه . » فصرعه الشيطان في الوسط وخرج منه ولم يضرّه شيئاً . » (١

واما قيامة الاموات فاشهر عجائب المسيح فيها قيامة لعازر ، وقيامة ابنة الرئيس ، وقيام ابن ارملة من مدينة نائين . وكان يسوع ذاهباً الى هذه المدينة :

« فلما قرب من باب المدينة اذا ميت محمولٌ ، وهو ابن وحيد لامه وكانت ارملةً ، وكان معها جمع كثير من المدينة . فلما رآها الرب تحنّن عليها وقال لها : « لا تبكي » . ودنا ولمس النعش فوقف الحاملون . فقال : « ايها الشاب ، لك اقول : قُم . » فاستوى الميت وبدأ يتكلم فسلّمه الى أمه . فاخذ الجميعَ خوفٌ ومجدوا الله قائلين : لقد قام فينا نبيٌّ عظيم وافتقد الله شعبه . » (٢

واما قيامة لعازر فاننا نحيل المطالع الى انجيل يوحنا (٣) ، فيرى فيه تلك القطعة الرائعة معنًى ومبنًى . الى غير ذلك من الاعاجيب الكثيرة . واننا لم نكتفِ بهذه المظاهر الاربعة الّا لان جبران يشير اليها خاصة ويحاول تعليلها بما يستدعي الابتسام ، قائلاً عن المسيح ، على لسان ملاخي الفلكي البابلي :

« يقولون انه كان يعطي العميان بصراً ، والمقعدين مقدرةً على المشي ، وانه كان يخرج الشياطين من المجانين .

قد لا يكون العمى الا فكرة مظلمة يمكن التغلّب عليها بفكرة ملتهبة . وقد لا يكون العضو المشلول الا خمولاً يمكن ايقاظه بالقوة المتحركة . وقد يكون ان الشياطين ، وهي العناصر الغلفة في حياتنا ، تخرجهم منا ملائكة السلامة والطمأنينة .

ويقولون انه اعاد الموتى الى الحياة . فاذا كنت تقدر ان تخبرني ما هو الموت ، فانا حينئذٍ اخبرك ما هي الحياة . » (٤

كذا ! ولا نرى ضرورة للتعليق على هذا الشرح !

بل فلننتقل الى اهم المواقف ، غير العجائب ، من التي ترك فيها جبران الموضوع النباتي المحض ليجعل محور بحثه فلسفياً عميقاً وشبه لاهوتي . فنراه يوجز خلاصة افكاره في النص الذي هو مقدمة « آلهة الارض » وزبدة كل ما مضى من التآليف ، وذاك النص مروي على لسان « يوحنا التلميذ الحبيب في شيخوخته » قال :

---

١) لوقا ٤ : ٣٣-٣٦
٢) لوقا ٧ : ١٢-١٧
٣) يوحنا ١١ : ١-٤٦
٤) يسوع ابن الانسان ، ص ٤٠-٤٥

« ولعلكم تسألون ، لماذا سميته « الكلمة الاولى » . فاصغوا لاجيبكم :
في البدء تحرّك الله في الفضاء ، ومن حركته التي لا قياس لها ولدت الارض وفصولها .
ثم تحرّك الله ثانية ، فانبثت الحياة ، فصار حنين الحياة ينشد العلو والعمق ، ليكون له الاكثر فالاكثر من ذاته .
ثم تكلّم الله ، فكان الانسان من كلماته ، وكان الانسان روحاً مولودةً من روح الله .
وعندما تكلّم الله هكذا ، كان المسيح كلمته الاولى ، وكانت تلك الكلمة كاملة ، وعندما جاء يسوع الناصري الى العالم ، سمع العالم به الكلمة الاولى الخارجة من فم الله ، وصار صوت تلك الكلمة لحماً ودماً . » (١

فلنقربل هذا المتن الذي تكاثفت به افكار جبران واتخذت فلسفته عبارتها المختصرة المفيدة عن يسوعه ، على لسان تلميذه الحبيب ، في سن الرصانة والحكمة . ولنتخلص من الذهول الفوري امام الآيات الطنّانة في هذا الموضوع العويص ، ونحفظ ما يبقى بعدئذٍ بصفاة الفكر وزى نسبته الى المبادئ الروحية .

قال جبران : « في البدء ، تحرّك الله في الفضاء . . . » فاستعمل في تعبيره الفعل اللازم اي الذي يكتفي بفاعله ويعود تأثيره عليه . مع ان المذاهب الروحية تدين بغير هذا المبدأ ، لانها تعلم ان الله في البدء حرّك الكون وخلق وابدع ، اي تعدّى بافعاله الى ما يخرج عن ذاته ، فبرأ عالم الوجود . فالله كائن قبله منذ الازل ، وباقٍ بعده الى الابد . وكان من جملة ما ابدع الارض ، والانسان الذي صوّره من ماء وطين ، ونفخ فيه من روحه . واما جبران فيقول ان الارض وُلدت من الحركة الذاتية الكبرى لله ، ومن مثل هذه الحركة الالهية العظمى انبثقت الحياة . واخذت هذه الحياة الالهية الارضية توسّع دائرة نطاقها لتكسب الغلبة والتفوّق برفعتها وتأصلها . وعندما بلغ تطوّر الحركة الالهيّة — لا الحركة التي احدثها الله خارجاً عن نفسه — الى هذا الحدّ وصار ارضاً حيّة ملأت الجوّ الخالي ، عند ذلك « تكلّم الله ، فكان الانسان من كلماته ، وكان الانسان روحاً مولودةً من روح الله . » وفي هذا الدور تلفظ الله بالكلمة ، اي اظهر معنى الحياة الارضيّة المتغلّبة ، لان الكلمة هي عبارة عن الثوب الذي يفصّل للمعنى المقصود ، وهي ترجمة الغاية الكامنة في سر المتكلّم .

(١ يسوع ابن الانسان ، ص ١٣٦–١٣٧

ويتكلم الله جعل الانسان روحاً منبثقة من روحه ، فكان هذا الانسان موضوعاً وغايةً للحياة الارضية التي انبتها البذار الالهي ، وكان المسيح اول ثمرة كاملة انتجتها تلك الشجرة « وصار صوت تلك الكلمة لحماً ودماً » . يُشبع جبران فكرته ايضاحاً ، فيبيّن ان موسيقى الكلمة التي صدرت من شفتي الله عندما اخضرت الارض بالحياة ، « هي اللحم والدم » ومن البديهي ان حسن النغم وجمال اللحن يكونان في تمام العناية باللحم والدم ، اي في عناصر الجسد فقط . وهكذا يكون الجسد البشري هو الكلمة الكاملة المولودة من روح الله . ويكون هذا الجسد هو القالب الذي حصر به « حنين الحياة الذي ينشد العلوّ والعمق » ، اي الذي تكاثف به حب الانشراح والاتساع اللامتناهيين في تجسمه الارضي الناتج عن تحرّك الله على الوجه الذي « لا قياس له » اي الذي لا يحدّ حركته فكر ، ولا يدركها فهم .

مرةً اخرى يتجلّى جحود جبران اصل المبادئ الاساسية للمذاهب الشرقية التي اوجدت نزعات ما وراء الطبيعة ، وذلك بانكاره استقلال القوّة السماوية اللامتناهية التي تعمل بارادتها الحرّة عملاً غير لازم .

ومرّةً اخرى ينفي الروح المجرّدة والفكر والعقل ليقدّس ويؤلّه « كتلة اللحم والدم » بجعلها نغمة الروح وسرّ الحياة .

ولكنه في هذه المرّة اتخذ رمز الروحية التاريخية الاكبر (يسوع المسيح) وادغمه في خلايا المذهب المادي الرامي الى تقديس الارض وكل ما عليها ، واهم خُلق يميز هذا المذهب الفلسفي هو عبادة الجسد . وقد انشأ جبران في كتابه مقالاً مخصوصاً للتعبير عن تأليفه بين المبدأين النقيضين ، وهو الذي يستنطق فيه « سركيس الراعي اليوناني الشيخ الملقب بالمجنون : يسوع والاله بان »[1] .

وبهذا التأليف وذاك الادغام الصق جبران في اثره الفنيّ علّة الاضطراب بين الحقيقة العلمية والتركيب الادبي . ونقدّر بانه سيق الى هذا الانتاج ليجعل من عصارة عاطفته المكبوتة طعنة انتقام سامّة في قلب الهيئة الاجتماعية التي حُرم جليل رغائبه ، في مقتبل عمره ، بسبب فردٍ من ابنائها هو المطران بولس غالب[2] ،

١) يسوع ابن الانسان ، ص ١٨٦-١٨٩ ٢) في الاجنحة المتكسرة

وسبب فروق اعضائها فاعتبرها من ظلام العاطفة الجائرين على الحرية. فكان متطرفاً في نزعته، وكان مفرقاً في جدّيته، ليحوّل القوم عن موضوع تعاليمهم.

ومما يلفت النظر ويؤيّد رأينا هذا الزفرة المرّة التي ينفثها جبران على لسان «سابا الانطاكي: يصف شاوول الطرسوسي» بحقّ منظّم اللاهوت الروحي، وباعث الاتجاهات الروحية المسيحية: بولس الرسول. قال:

«ان بولس هذا رجل عجيب غريب. ان نفسه ليست بنفس الرجل الحر.

فهو كثيراً ما يبدو كالحيوان في الغابة، طارده الصيّادون ورموه، فجاء ينشد كهفاً يخفي فيه اله عن العالم.

وهو لا يتكلم عن يسوع ولا بيد اقواله. بل يعظ عن ماسيّا الذي انبأت عنه الانبياء.

ومع انه من علماء اليهود فهو يخاطب اصحابه اليهود باليونانية. ويونانيته عرجاء، وهو لا يحسن اختيار الفاظه لمواضعها.

بيد انه رجل ذو قوة خفيّة، والناس يؤيّدونه باقبالهم على سماعه، وكثيراً ما يؤكد لهم اموراً هو نفسه لا يثق بها.

فنحن الذين عرفنا يسوع وسمعنا خطبه نقول انه علّم الانسان كيف يحطم قيود عبوديته ليتحرّر من سجون امسه.

ولكن بولس هذا يصنع قيوداً جديدة لرجل الغد. فهو يضرب بطرقته على السندان باسم رجل هو نفسه لا يعرفه... فالناصري يرغب الينا ان نعيش الساعة بوجد وشوق. اما رجل طرسوس هذا فانه يأمرنا بالمحافظة على الشرائع المكتوبة في الكتب القديمة.»[1]

اذن جبران نفسه يصرّح بان يسوع الذي يقصده على طرفي نقيض مع يسوع بولس الرسول. فيسوع، كما بشّر به بولس، مصدر الرصانة والمحافظة والنظام. وهي اشياء يشمئزّ جبران من ذكرها وينقم على ناشريها. فيصوّر يسوعه ثائراً يتطلّب الحرية المطلقة، ومحباً والهاً يحيا بالعاطفة الايجابية.

وعلى هذا الوجه نظم قصيدته التي تغنى بها في آخر الكتاب بزايا البطل الذي اراد تخيّله باسم «ابن الانسان» فامتدح به سجاياه المختارة وافاض من شآبيب قلبه انشودةً رائعة وجّهها اليه تحت عنوان «رجل من لبنان: بعد تسعة عشر قرناً.»[2] وما هذا الرجل سوى جبران نفسه يلخّص عواطفه وافكاره التي سكبت بين طيّات الكتاب.

١) يسوع ابن الانسان، ص٦٢-٦٤

٢) يسوع ابن الانسان، ص٢١٦-٢٢٤